# فن الرواية

## بين «اللص والكلاب» و«الرجل الذي فقد ظله»

بقلم يوسف الشاروني

من أهم الاعمال الادبية التي ظهرت أخيرا في أدبنا العربي المعاصر روايتان ، احداهما « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ ، والاخرى « الرجل الذي فقد ظله » لفتحي غانم . وقد نشرت كلتا الروايتين أولا على حلقات في الصحف قبل أن يجمع الكتاب شتاتها .

وقد بدأ فتحي غانم بنشر روايته قبل أن يبدأ في ذلك نجيب محفوظ ، ثم انتهى منها بعد انتهاء « اللص والكلاب » . ذلك أن «الرجل الذي فقد ظله » تبلغ أكثر من خمسة أمثال « اللص والكلاب » في الطول ، فمجموع صفحاتها ٧٤٠ صفحة على وجه التحديد ، وبذلك تكاد تكون أطول رواية ظهرت في أدبنا العربي المعاصر بعد ظهور ثلاثية نجيب محفوظ .

وقارىء الروايتين يلحظ كثيرا من أوجه المقارنة بينهما سواء في اختيار بعض الشخصيات او في الاسلوب ، وليس معنى هذا أن أحدهما أخذ عن الآخر او تأثر به ، بل مرد ذلك في رأيي الى وحدة البيئة الادبية والبيئة الاجتماعية التي أنتجت العملين .

فشخصية الصحفي الوصولي نجدها في العملين ، نجدها في شخصية « رؤوف علوان » في رواية « اللص والكلاب » ، ونجدها في شخصية « يوسف عبد الحميد السويفي » في رواية « الرجل الذي فقد ظله » ، ونحن لا نلتقي بأحدهما حتى نتذكر زميله على الفور مع اختلاف في التفاصيل .

فقد كان رؤوف علوان فيما مضى : « الحماس الباهر الممثل في صورة طالب ريفي رث الثياب كبير القلب ، والقلم الصادق المشع ، ترى ماذا حدث للدنيا ؟ » وهو « لم يكن فيما مضى الا محررا بمجلة النذير ، مجلة منزوية بشارع محمد علي ، ولكنها كانت صوتا مدويا للحرية . ترى كيف أنت اليوم يا رؤوف ؟ فهل تغير مثلك يا نبويه ، هل ينكرني مثلك يا سناء ؟». ثم يكتشف اللص سعيد مهران بعد خروجه من السجن أن صديقه الصحفي رؤوف علوان لم يبق من شخصه القديم الا صورته فتألم قائلا : تخلقني ثم ترتد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تجسد في شخصي ، كي أجد نفسي ضائعا بلا أصل وبلا أمل ، خيانة لئيمة لبو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت نفسي .

ولكن رؤوف علوان ليس البطل الرئيسي في قصة « اللص والكلاب » بل هو اللص سعيد مهران الذي كان ضحية أقرب الناس اليه وهم زوجة نبوية وصديقه عليش سدره وصغيرته سناء التي لم تعرفه ، ثم استاذه رؤوف علوان ، هؤلاء هم الذين انكروه فخلقوا منه مجرما يعاديهم ويعادي المجتمع .

أما بطل « الرجل الذي فقد ظله » فهو « يوسف عبد الحميد السويفي » احد هؤلاء الجناة ، وهو في سبيل الوصول الى الشهرة والثروة ، فقد ظله ، وظله هم اقرب الناس اليه ، فاصبحت نفوسهم ضائعة بلا أصل ولا قيمة ولا أمل على حد تعبير سعيد مهران ، وكما أصبح سعيد مهران لصا وقاتلا ، أصبحت مبروكة زوجة أبي يوسف عاهرا ، وكانت خادما تزوجها أبوه وهو في الستين ، فلما مات زوجها مضت تلاحق ابنه تطلب معونته ، ولكنه فر خجلا منها حتى اضطرت ان تبيع جسدها لتحصل على لقمة العيش . كذلك أصبحت سامية خطيبته مجرد ممثلة فاشلة تتردى في هوات اليأس وتتزوج وهي في العشرين برجل في الستين ما يلبث أن يموت ، وكانت بينها وبين يوسف علاقة حب وصلت الى حد الخطبة ، بل انه حدد يوما لزواجه منها ، ثم وجد أن زواجه هذا يعوقه عما يتطلع اليه من مجد وثروة ، واذا به يتركها ليسافر الى سوريا حيث كان قد وقع انقلاب سياسي ليحقق مجدا صحفيا ، وذلك في اليوم نفسه الذي حدده لزواجه منها . كذلك داس على استاذه محمد ناجي ، الصحفي الكبير الذي عن طريقه دخل عالم الصحافة ، واذا به يطرده بل ينتزع منه مكانه انتزاعا ، حتى ينهار الرجل ويسرع الى نهايته . أما صديقاه شوقي وسعد فقد ألقى بأحدهما في السجن بينما أصبح الآخر مجرد حطام .

* *

ومن الملاحظ أن كلا الروايتين قد كتبت بضمير المتكلم أساسا ، وأن استخدم ضمير المخاطب أحيانا في رواية « الرجل الذي فقد ظله » ، وضميرا المخاطب والغائب في « اللص والكلاب » ، لكن هذه الضمائر ، ما تزال ملاصقة لضمير المتكلم ، والشخصية ما تزال اما تخاطب نفسها واما تتكلم عن نفسها .

واستخدام ضمير الغائب في « اللص والكلاب » قد أتاح للمؤلف حرية التدخل حين يريد ، بصفته العالم بكل شيء ، ولو أنه أباح لنفسه هذا التدخل في اضيق الحدود . أما « الرجل الذي فقد ظله» فان المؤلف لا يعطي لنفسه هذه الحرية أو هذا الحق في التدخل فلا يستخدم ضمير الغائب ، ولكنه استعاض عن هذا القيد بالشكل الرباعي للرواية ، فقد استطاع أن يكشف لنا عن زوايا أخرى لشخصياته من خلال وجهة نظر الشخصيات الاربع .

ولكن ليس يكفي ان يستخدم ضمير المتكلم ليكون الاسلوب واحدا في الاجزاء الاربعة لرواية « الرجل الذي فقد ظله » فالجزء الثالث الخاص بمحمد ناجي له اسلوب يغاير اسلوب الاجزاء الثلاثة الاخرى ولعله اقرب أجزاء الرباعية الى اللص والكلاب من ناحية الاسلوب .

فالحوادث في الاجزاء الاولى والثانية والرابعة من « الرجل الذي فقد ظله » تتسلسل منطقيا وتخضع للتعاقب الزمني ، اي انها ـ وان كانت بضمير المتكلم ـ الا أن سردها يتم عن طريق حديث واع مما ننطق به او نكتبه ، أما الجزء الثالث فاسلوبه تتداعى فيه المعاني طبقا لما يثيره الحاضر بغض النظر عن ترتيب وقوعها الزمني ، ولا تناسب بين اطوال السرد ، فقد استغرق سرد أحداث ليلة واحدة نصف حجم الكتاب .

ولكن ليس معنى هذا ان الاسلوب بعيد كل البعد عن المنطق، بل هو ـ فيما عدا أجزاء قليلة ـ كأسلوب اللص والكلاب ، نوع من المونولوج الذي يفترض ان له سامعا ، فهو اقرب حديث غير منطوق الى الحديث المنطوق ، انه اشبه بتلك الكلمات التي نعدها قبل ان نهم بالكتابة او الكلام مع الاخرين ، يتخلله من حين لاخر كلام منطوق على شكل حوار يقع في الحاضر او في صورة تذكر لهذا الحوار .

ومع ذلك فاننا نلتقي ببعض الفقرات التي تزداد فيها سرعة الانتقال من مستوى الكلام المنطوق الى مستوى ماقبله ثم نعود اليه لنتراجع من جديد ، كما نجد في نهاية الجزء الخاص بمحمد ناجي حيث يعلن قائلا : « دوى قطار يسير داخل رأسي ، لابد ان اشكو ، لا أراهما ، ضباب فوق عيني ،ولكني مازلت أجلس الى المائدة ، الطعام في حلقي ، ماذا

تقول له . لا اسمعها . كل شيء يذهب ... يبتعد .. يخفت ..» وهنا نجد تراجعا الى مناطق من الشعور اكثر ابهاما وغموضا ، حيث تؤدي الافكار المتداخلة والجمل القصيرة وظيفة فنية ، اذ انها تلخص لنا في سطور قليلة العمل الفني كله . وكأنما الماضي ـ مختلطا بالحاضر ـ يستيقظ امامنا . ومعرفتنا السابقة بتفاصيل حياة محمد ناجي هي وحدها التي تنقذنا من عدم الفهم ، لانها ليست سوى اشارات ورموز للحياة الداخلية الخاصة بصاحبها لايدركها الا من اتيح له الاطلاع عليها من قبل . وكما كانت هذه الكلمات تعبر عن صحوة الموت بالنسبة لمحمد ناجي ، فاننا يمكن ان نستعير التعبير نفسه لنقول انها تعبر ايضا عن صحوة النهاية بالنسبة للعمل الفني .

ولعل هذا الجزء الخاص بمحمد ناجي قد كتب بهذا الاسلوب ليعبر عن مدى أزمة بطلة لانه كان اشد أجزاء الظل اهتزازا ، فبعد ان وصل الى ماوصل إليه نراه في هذا الجزء وهو « يتدحرج » ويبدو ان هذا الاسلوب كان انسب الاساليب للتعبير عن هذا التدحرج ... عن هذا الفزع الذي يصيب الانسان وهو يسقط من حالق ، فمضى يعترف لنا وكأنما هو نصف مستيقظ ونصف نائم .

ويبلغ اسلوب بعض فقرات هذا الجزء درجة من الشفافية والشاعرية وهي ترتفع الى مرتبة الرمز ، ولنقرأ هذه الفقرة وفيها يرمز الهبوط على السلم الى الهبوط عن مركزه ، ويرمز الطفل الى يوسف عبد الحميد السويفي الذي انتزع منه مركزه ، الى بقية الرموز التي لا تخفى على القاريء ، يقول محمد ناجي :

كيف صعدت هذا السلم بالامس ؟ اني لااكاد اقوى على الهبوط عليه . أين شجاعتك يامحمد .. أين شطارتك ومكرك ... لاتنظر الى اسفل حتى لا يصيبك الدوار ، تجاهل انك تهبط ، ارفع رأسك، واهبط كأنك صاعد ، شد قامتك ، لا تسأل كم طابقا هبطت ، لاتسأل . صوت بيانو يخرج من هذه الشقة ، انغام حزينة جنائزية ، البيانو يدق في قلبي ، يخلعه . السلم مظلم ، لا ، عيناي مظلمتان ، لا تقف يا محمد ، الهث. تاوه . ولكن حرك قدميك . هذا الطفل الواقف عند الباب عيناه تشبهان عيون القطط ، ينظر الي في خبث ، نظراته خطيرة ، انه يرقب حركاتي ، يسخر مني ، يعرف اني عجوز ، آه ، ارفع رأسك ، الطفل يسرع ورائي ، يقفز درجات السلم قفزا ، هبط ، التفت الي، عيناه حادتان . نعم يا ابني ، انا لااستطيع ان أهبط مسرعا مثلك . انت أشطر مني .. الشارع طويل بلا نهاية ، الضوء ساطع يبهر عيني ، الزحام شديد الضجة عالية ، ليس هذا عالمي ، انهم يمرون مسرعين ، حركاتي البطيئة تعرقل حركتهم . اكتافهم تضرب كتفي ، عيونهم تنظر شزرا ، ماذا تفعل ايها العجوز وسطنا ، اذهب الى سريرك وادخل المصحة ، ليس لك مكان بيننا . لايمكنني ان أواصل السير . سأسقط بعد الخطوة القادمة . الشارع يدور والناس يدورون ... مابالك تنهار في الساعة الاخيرة ، سيمر هذا العذاب وستستريح .

وعندما يفشل محمد ناجي في احدى محاولاته الجنسية نفهم ان عجزه ليس الا رمزا لعجزه كانسان ، وان عجزه الذي ينتهي بموته ليس الا رمزا لتلاشي العهد الذي كان محمد ناجي الممثل الفكري والمعبر الروحي عنه .

وفي احدى الفقرات نستمع الى محمد ناجي يقص كيف قتل توني كلب صديقته المغنية المرحومة دلال امام زوجته ساميه ، وكأنما قتل الكلب بديل عن انتحاره ، فهو يقول : كنت أريد ان اقتل الكلب بيدي . اريد ان اقضي على هذا الكابوس في رأسي .

ونحن نعثر على حادث مشابه في رواية « من أين » للمؤلف نفسه، حين نقرأ كيف قام الصحفي يوسف ، فقتل الفأر الوديع المستأنس امام علياء حبيبته التي تركته ، أي في ظروف مشابهة لتلك التي قتل فيها محمد ناجي كلب عشيقته ، وكان القتل في هذه المرة ايضا يؤدي الرمز السابق نفسه .

وتقف خاتمة الرباعية الى جانب هذا الجزء في شفافية الاسلوب ورؤيته ، وكأنما كتب ايضا في لحظة من لحظات النشوة التعبيرية .

وقد لجأ نجيب محفوظ الى أسلوب مشابه في قصة « اللص والكلاب » فليس ثمة تعاقب زمني للحوادث ، فاللص يقص علينا حاضره اولا ، ومن حين لاخر ، يرتد الى ماضيه ، بلا ترتيب زمني . فهو مثلا يسرد كيف نشأت علاقته بنبوية زوجته السابقة قبل ان يسرد علينا كيف كانت نشأته وعلاقته في طفولته بأبيه وبالشيخ الجنيدي ثم بالصحفي رؤوف علوان .

والرمز خاصية من خصائص الفن الروائي في « اللص والكلاب » نجده في الاسلوب لاسيما على لسان الشيخ الجنيدي الذي يستخدم لغته الصوفية المشحونة بالرمز دائما . ونجده في الشخصيات والامكنة، فرؤوف علوان « رمز الخيانة التي ينطوي تحتها عليش ونبوية ، وجميع الخونة في الارض .. فالرصاصة التي تقتل رؤوف علوان تقتل في الوقت نفسه العبث » . ونور ترمز ـ كما يدل على ذلك اسمها ـ الى جانب النور في حياةسعيد مهران ، ولعل الغرفة التي يطل عليها بيت نور ـ وهي البغي التي لجأ اليها سعيد مهران مختفيا عن أعين الشرطة ـ لعلها رمز للدنيا التي يلتقي فيها الموت بالحياة كما يرى الدكتور لويس عوض ، ولعلها رمز للتيه والضياع كما يرى الدكتور شكري عياد . أما اللص نفسه فهو رمز للملايين : ان من يقتلني انما يقتل الملايين ، انا الحلم والامل وفدية الجبناء ، وانا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه. والقول بانني مجنون ينبغي ان يشمل كافة العاطفين فادرسوا أسباب هذه الظاهرة الجنونية واحكموا بما شئتم .

ونحن نجد ان أسلوب سعيد مهران ، هو أسلوب الضحية ، فهو يخاطب رؤوف علوان قائلا : ترى أتقر بخيانتك ولو بينك وبين نفسك ، أم خدعتها كما تحاول خداع الاخرين ؟ الا يستيقظ ضميرك ولو في الظلام؟ أود ان أنفذ الى ذاتك كما نفذت الى بيت التحف والمرايا ببيتك ؟ ولكني لا اجد الا الخيانة .سأجد نبوية في ثياب رؤوف او رؤوف في ثياب

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

صدر حديثا :

الطبعة الثالثة من

سارتر والوجودية

كتاب لابد ان يقرأه كل من يريد ان يفهم آثار سارتر

تأليف

ر . م . البيريس

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

# الفن الروائي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

نبوية ، او عليش سدره مكانهما . ستعترف لي الخيانة بانها أسمج رذيلة فوق الارض .

اما يوسف فاسلوبه اسلوب الجاني ، وهو يحصى ضحاياه قائلا : شوقي صاحب المبدأ في حمايتي ، سعد الذي تخلى عن مبادئه في حمايتي ، شهدي صاحب المال في حمايتي ، محمد ناجي الذي انهار في حمايتي . مبروكه ليست في حمايتي ، انها تتحداني ، البغي ،الخادمة لا تموت ... ماأروع ان يكون الانسان قويا ، ماأروع ان يمشي الانسان القادر فوق أشلاء ضحاياه .. اني احطم اصدقائي واحدا بعد الاخر، أتحول الى انسان مفترس لا يكترث بشيء ..

هذه نغمة الجاني ، وكان يمكن ان تكون نغمة رؤوف علوان في قصة اللص والكلاب لو انه فتح فاه وتكلم .

ولنستمع الى أنات الضحايا لكل من الشخصيتين ، ان اللص سعيد مهران يتساءل متوجعا : رؤوف علوان ، خبرني كيف يغير الدهر الناس على هذا النحو البشع ... أانت رؤوف علوان صاحب القصر ، أنت الثعبان الكامن وراء حملة الصحف ؟ تود ان تقتلني كما كان الاخرون ،وكما تود ان تقتل ضميرك ، وكما تود ان تقتل الماضي . لكني لا أموت قبل ان أقتلك . انت الخائن الاول .

وفي الجزء الاول من « الرجل الذي فقد ظله » نرى مبروكة في مطلع الفصل الاول تقول : قلبي لايعرف سوى عاطفة واحدة هي الحقد ، أحقد بكل شبابي ، أحقد بعمري . أحقد على رجل اتمنى موته موتا بطيئا يتعذب فيه ، أتمنى لو فتحت بطنه بسكين ، ومددت يدي في جرحه ، وانتزعت كبده ونهشتها بأسناني ، أتمنى لو دفعت أظافري في عينيه وفقأتهما ، لو شربت من دمه .. اسمه يوسف ، يوسف عبد الحميد ابن المرحوم من زوجته الاولى.

وفي الجزء الثاني نستمع الى الممثلة الناشئة سامية تتحدث في مطلعه قائلة : دنيا السينما غابة مليئة بالذئاب .. كلهم ذئاب « وأمثالهم بالنسبة للص سعيد مهران كلاب » .. حتى الصحفيون الذين يحومون حولنا في الاستديوهات يلتقطون اخبارنا لينشروها هم ايضا ذئاب . لقد ضاعت مني فرصة العمر بسبب واحد من هؤلاء الصحفيين ، انه رئيس تحرير الان ، صحفي مهم مشهور ، كل الناس تعرفه وتتحدث عنه ، لكنهم لايعرفونه على حقيقته ، انا وحدي التي تعرفه ، انا وحدي التي تستطيع ان تقول من هو يوسف عبد الحميد .. من أجله تركت فرصة العمر ، ورفضت دور البطولة ، اما هو فما كادت تبرق امامه الفرصة حتى رفسني بقدمه ، وتركني اتدحرج وانحدر ، ومضى هو يرتفع .. ويرتفع وحده .

ومحمد ناجي استاذ يوسف عبد الحميد السويفي في الصحافة والوصولية يثن قائلا : الان تغير كل شيء ، اخذ مكاني ، ذلك الصعلوك العبقري في النفاق استاذ النفاق ، يوسف عبد الحميد السويفي ، شيء مضحك يثير الرثاء ، هذا الولد أصبح أهم واخطر مني .

حتى يوسف يدرك نفسه ، فهو يقول : اني مجرم ، خواطري حقيرة، تنحدر بي الى الحضيض . أهذه هي المهارة المطلوبة ؟ الا يوجد حل شريف اخر ؟.. عيبي الكبير أني أعي الجريمة .

لهذا فبطل « الرجل الذي فقد ظله » فيه سمات البطل التراجيدي، لان ضميره معذب ، لانه ارتفع الى مرتبة الوعي بخطئه ، لانه يناقش نفسه .

اما سعيد مهران ، بطل اللص والكلاب ، ففيه سمات البطل الملحمي ، فهو مثله يؤمن بفكرة ، لا يتردد في محاولة تنفيذها مهما لاقى من عقبات .

وهذا الموقف التراجيدي للرجل الذي فقد ظله جعل رواية فتحي غانم اكثر تفاؤلا ، لان عذابه ، واعترافه ، وندمه ـ وان لم يصل الى درجة التفكير ـ معناه ادانة للشر ، وانه لاينتصر حتى في نفوس اصحابه ومنفذيه .

اما سعيد مهران ، فبعد ان تختفي نور من حياته يختفي كل نور من حياته ، وتحيط به الكلاب من كل جانب ، حتى ليعجز عن تحديد مصدر نباحها ، فيستسلم يائسا لمطارديه وهو يئن قائلا : لا أمل في الهروب من الظلام بالجري في الظلام ، نجا الاوغاد وحياتك عبث .

وهذا شبيه بما حدث لضحايا «الرجل الذي فقد ظله» فيما رووه لنا في الاجزاء الثلاثة الاولى ، ولولا اننا حصلنا على اعتراف الجاني ، على اعتراف يوسف عبد الحميد السويفي في الجزء الرابع، لما كانت رواية الرجل فقد ظله اقل تشاؤما. وان كان انهيار محمد ناجي في الجزء الثالث دلالة على انهيار الشر، وذلك بسبب موقفه الفريد بين شخصيات القصة، اذ انه اشترك في الجريمة ، فقد كان أستاذ يوسف في الوصولية ، الا انه مالبث ان أصبح ضحية جريمته وفريسة تلميذه، ومصيره نبوءة بمصير يوسف ، فهزيمته اذن هزيمة الشر في الماضي والمستقبل .

اما سعيد مهران ، فبالرغم من انه كان لصا ثم قاتلا ، الا ان معرفتنا بالمبررات التي ادت به الى هذا المصير ، جعلت منه الضحية وغيره الجناة، ورغبته في الانتقام تمثل عصا العدالة ، او ـ على أكثر تقدير ـ الشر الذي يعاقب الشر ، وكلما طاشت رصاصاته وأصابت أبرياء أحسسنا ان العدالة تطيش ، وهزيمته ليست الا هزيمة للعدل او لرغبتنا في الثأر من الشر ، واستسلامه ليس الا استسلاما للجناة او من يسميهم بالكلاب .

فعنصر التفاؤل في رواية « الرجل الذي فقد ظله » مرده اذن الى شكلها الروائي ، فنحن في « اللص والكلاب » لا نستمع الا الى وجهة نظر اللص سعيد مهران في نفسه وفي الاخرين ، ولعلنا لو حصلنا على اعتراف رؤوف علوان لاكتشفنا هنا ايضا نفسا معذبة مؤرقة ، ولكن ما من سبيل الى التحقق من ذلك ابدا .

اما في رواية « الرجل الذي فقد ظله » فان شكلها الروائي ، وأعني به انقسامها الى اربعة أجزاء ، كل جزء ترويه احدى الشخصيات على لسانها ، أتاح لنا ان نستمع الى وجهة نظر كل شخصية في علاقتها بالبطل، كما أتاح لنا ان نستمع الى اعتراف البطل على نفسه ، مما جعلنا اكثر تعرفا على الحقيقة ، وأكثر استكمالا لجوانبها .

يوسف الشاروني


## مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

ساطع الحصري — ثقافتنا
احسان حقي — تونس العربيه
سيد امير علي — روح الاسلام
الادب الأميركي — ترجمة جميل جبر
عبدالله فيليبي — ارض الانبياء
مادها بانيكار — ثورة افريقيا
همنغواي — روابي افريقيا الخضراء
زكريا ابراهيم — تأملات وجودية
الندوة اللبنانية — لبنان في محافظاته